مدخل

لولا جناية العجلة والعُجْب والطَّيش والحِدَّة والخِفَّة على أصحابها، لصحَّت لهم العقول.

وكم حذَّر الوحي من تلك الغوائل التي تقطع الطريق على العقل أن يُكمل دورته ليُعْطي الحكم بلا مَيْن، وما هو إلا مخلوق يحكم على نحو ما يُعْطىٰ، يبحث ويَنْظُر، ويكشف ويُنَقِّر، ويستقصي ويَسْبر، ويسأل ويَستبصر، فإذا قُطع الطريق عليه أعطاك حكمًا متلجلجًا، لا نظام له ولا اتساق.

ولا إشكال في تعامل العقل مع المادة، وإنما الإشكال في إرساله ليخوض في ظلامها، فيرى منها رأس ظفرها فيظن أنه رآها جميعها، وخالقه وخالقها يأمره وينهاه، ثم يكابر الخالق ويُخاصمه: «هذا ما رأيت.. وهذا ما أرى..» (ذلك مبلغهم من العلم).

وكثيرٌ من العقول لتعنُّتها تستبد على صاحبها، فلا تقنعها نُذُر الكتابة ولا الأقوال، حتى تبلغ الحالة التي تُريد بها بنفسها لتعرف ما هي، ثم ترجع مع أسراب النادمين.

ومن عرف قدرة الموهبة العقلية وحَدَّها، والأنواع المتكاثرة المؤثرة في إصابتها الحقيقة، واختلافها كثرةً وقلةً وقوةً وضَعْفًا، وتعامل معها بحذر، صح له العقل، والعقل إذا صح فهو الموهبة الإلهية التي لا يوازيها شيء، وإذا فسد واضطرب فهو البلوى التي لا يتلافاها شيء.

وكثيرًا ما ينغمس العقل في فلسفات فيُوغِل في زوايا حقها التبسط،

فيجد لديه من المدارك وحسن الحجج والبداهة في استحضار البيِّنة، والاسترسال فيها ما لا يجده عند غيره، فيحجبه ذلك الخلط العقلي عن النتائج، ونسي أن الذي يعيش في الظلام يرى ما لا يراه الداخل من النور إلى الظلمة، والحق أن تبصر طريقك إلى النور، لا أن تحجبك رؤيتك في الظلام عن كونك في ظلام!

وإن كنت ترى ما لا يراه غيرك، فهذا حق قادك إلى باطل.

عبد العزيز الطَّريفي
atarifi@hotmail.com

مقدمة

أحمدُ الله وله المِنَّة على الحمد، وأعبُده خاضعًا لعظمته صاغرًا، لا إله إلا هو، استغنيت بالخالق ووحيه عن كل مَن يزعُم أنه سفيرٌ للحق؛ وأعوذ به أن أغترَّ بعقلي ليكون دليلي إليه، بعد أن خصَّني بخطاب وعتاب: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار: ٦ ـ ٨]، أستوهِبُه التأمُّلَ، وأستعيذ به من التقليد وما فيه من إضاعة العقل وإهدار النقل.

أمَّا بعدُ:

فأُقيِّد هذا الكتاب مع إدراك أن إظهار عيب الأفكار والأشخاص المُجرد والتنديد به نافذة تُطِلُّ على دارين.. النصيحة.. والتأنيب.. وتظهر على كثير منها آثار التبعية الكامنة، تَسوق النفوس ولا تَشعر، ولكني لا آتي ما آتي إلَّا وأنا واثق بعاقبته، ولا أدع ما أدع إلا وأنا حاسم طَمَعَ النفسِ والهوَى من خيره، حتى إن رأيت غيري يحفل به ويُشيد بجدواه، ومع هذا فلا أتكلف إلا ما في وُسْعي وطاقتي، ولن أُكلِّف أحدًا إلا وله طريق مُعبَّد إلى إجابتي، فسهولة الطريق وتذليله حقٌّ على الكاتب، وأما الأقدام السائرة وسلامتها فهي على صاحبها منه وإليه،

إن شاء سار، وإن شاء ترك وتوانى، وإن شاء ترك وتعلَّل بطول المسير، وتسلَّى بوعورة الطريق، لذا لن يصل إلى المقصود من هذا الكتاب صاحب الصدر الحرِج، والطباع الخائرة، والعَطَن الضيق.

اللِّيبرالية فِكر عَقلي يبدأ من العقل وينتهي إليه، يتسع باتساع العقل وقوته، ويضعُف بضعفه، ليس لديه شيء يتحاكم إليه غير العقل في شأن الفرد، وفي شأن المجتمع ونظامه.

يُحاكم العقل نفسه ولا يُقاضيه أحدٌ، فهو أعلى مخلوق حاكم وأعلى مخلوق محكوم، ولكن العقل يُضلَّل، فإن العقاب لا يكون عليه، بل على الجسد والنفس؛ لأنهما مَن قطع طريقه عن الوصول إلى الحق، وهل يُعاقَب الميزان إن طَفَّفَ وازِنُه؟! ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ [المطففين: ١ ـ ٣].

ومع هذا فأخطاؤُه تتكرر، وزلَّاته تتوالى، وقد أقسم الله بأقسام متوالية إقناعًا للعقل كي يمنَع صاحبَه عن الغَيِّ فلا يتكرر عليه خطأ غيره، ﴿وَٱلْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ۝٣ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ۝٤ هَلْ فِى ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ﴾ [الفجر: ١ ـ ٥]؛ **أي**: قَسَم لأجل ذي عقل يمنعه من المكابرة، قال ابن عباس: «هل في ذلك قَسَم لذي عقل، لذي رأي، لذي قُدْرة، لذي نُهى»[(١)].

ثم بعد قَسَمِه ذكَّره بأخطائه السابقة كي لا تتكرر عليه: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ يا صاحبَ العقلِ ﴿كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝٨ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ۝٩ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ۝١٠ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝١١ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ۝١٢ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝١٣ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: ٦ ـ ١٤].

---

(١) رواه ابن جرير الطبري في «تفسيره» (٢٤/ ٤٠١، ط. شاكر).

والأفكار لا تكون صحيحة إلا بيقظة تامَّة، ونظر فاحص، وصدق في طلب الحق، ومَن لم يملك ذلك تذبذب عند كل عارض يناقض عقيدته وفكرته ولو كان وهمًا.

ويكفي لفهم عدم محدودية الفكر الليبرالي النظر إلى القناعة الباطنة التي يُؤصِّل لها، وهي الإيمان بأنه يحق لكل أحد أن يختار لنفسه ما يُريد من دين وسلوك وفكر وقول وفعل مهما كان ذلك شاذًّا عن طبيعة البشر، وإن خالفه غيره، فلكل أحد حق متساوٍ في وجوب القَبول من الآخَر.

وعلى هذا فلا يعني عدم تبني بعض الليبراليين لبعض العقائد والأفكار ـ التي يتبناها غيرهم ـ شيئًا في أصول العقائد ما داموا يعتقدون أن من خالفهم له حق الاختيار كما لهم حق الاختيار بالتمام.

والاختلاف إنما هو في الظاهر لا في الباطن، وهو فكر لا يعتني بالبواطن وتصحيحها، بل عنايته بالظواهر؛ لأنه فكر دُنيوي مادي مَحْض، لا ينمي الارتباط بما وراء المادة، بل لا يعترف بغيرها في الحياة، ولا يرى الخوض في الدين وقضايا الآخرة؛ لأن ربط أي شيء منها بأمر دنيوي محسوس يؤثر فيه، فمقتضى سمات الفكر الليبرالي العامة وأصوله الفصل بينهما، بل إنه يُضعف أمر الآخرة ولا يهتم بها.

ولكون كثير من أصول ذلك الفكر يتوافق مع نوازع النفس وهواها، وغرائز الفطرة البشرية، والفلسفة العقلية، وجَدَتْ بعض الآراء الليبرالية قَبُولًا عند العقلية التي تأخذ الحكم بالنظر إلى صورته الظاهرة، لا بالرجوع إلى أصله وإلى تركيبته وآثاره وعلاقته وتوافقه مع الأصول الأخرى التي يعتقدها الإنسان؛ لأن الغالب في العقول العَجَلة.. خاصة الفارغة، وربما تحمل العقول كثيرًا من المتناقضات ولا تشعر بها إلا عند الحاجة إلى العمل بها ولتعارضها مع غيرها، فتبدأ العقول بتصحيح أفكارها التي أخذتها بلا رَوِيَّة.

والعوارض العملية وغيرها المناقضة للأفكار التي يؤمن به الإنسان ربما تكون نادرة الوقوع، فيطول زمن القناعة والرضا بالفكرة، وكلما طال الزمن تجذَّرت، وتشرَّبتها النفوس وتمدَّدت في الناس انتشارًا، وهي فكرة غير صحيحة من أصلها، وربما تكون العوارض التي تعترض للإنسان مؤيدة لفكرته، فلا تلغيها بل تؤكدها، وتلك العوارض هي التي تتذبذب حولها العقول، وذلك لجهلها بحقيقتها قوةً وكثرةً وأثرها بعد وقوعها بلا زيف أو تهويل.

وزمننا أكثر الأزمنة إمكانًا لقلب الحقائق والتأثير على العقول لقوَّة الإعلام وسطوته وتأثيره في قلب الحقائق، أو تهويلها وهي صغيرة، أو تحقيرها وهي كبيرة، والعقول تتأثر وتنخدِع بما ترى ويتكرر عليها ولا تستطيع التمييز بين حقيقة تكرار وقوع الشيء عملًا، وبين كونه وقع مرةً ولكنه يُكَرَّر ذِكرًا على العقول حتى تتأثر بتكراره ذكرًا كما لو أنه تكرر وقوعًا، لذا أصبح من السهل الترويج للأفكار والعقائد والدول والأشخاص وكذلك مناقضتهم بأسهل السبل.

فعندما يكذب الشخص مرة، ويقوم الناس بالتنديد به في المحافل ووسائل الإعلام ويكررون كذبته ألف مرة، فسيأخذها العقل على أنه كذب مرات، بل وطُبع على الكذب؛ لأن العقل على الرغم من قوته فإنه يُغْلب في هذا الباب، ومَن كذب مرات ولا يُنقَل كذبه ولا يُندد به، فإنه سيكون أحسن حالًا من المظلوم بتكرار سوئه، وسيبقى أمره موزونًا بالعقل لأنه لم يتأثر بشيء.

وقد تحول أكثر الناس عما كانوا عليه من قسر أجسادهم على الانقياد والتبعية بالقوة للقناعة بعقائد وأفكار وأعمال لا يرونها، إلى قسر العقول وتغيير القناعات بالتدليس والتغرير، وقلب الحقائق، حتى ينساق

العقل من حيث لا يشعر، فالتدليس والتغرير هما القوة القاسرة المستبدة بالعقول، وهي علامة وأمارة على هذا الزمن المتأخر.

والعقول في زمننا كأسراب الطيور خلف المؤثرات عليها، وقليلٌ مَن يتحكم بضبط عقله ووزن حكمه، وللنفس هوًى دخيل يمتزج مع العقل، فإذا لم يقتلعه كما يقتلع الزارع النباتات الأجنبية من بين زرعه، فإنه لن يُنتج نتاجًا إلا وبه شائبة، وقد ينغمس الهوى في العقل كما ينغمس شوك السعدان في الصوف فلا يُنتزع إلا بمشقة، ولا بد للعاقل أن ينتزع معه شيئًا صحيحًا من نتاج العقل ليسلم له الباقي حيطة لدينه واحترازًا من بقاء هوى النفس ولو قلَّ؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ﴾ [يوسف: ٥٣].

وكثير من هوى النفس غلاب، يعرضه إبليس على عقل الإنسان دون إرادته، وقد عفا الله عن وروده، ومنع من الاستجابة له؛ فعن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: **(إِنَّ اللهَ تَجَاوَزَ لِي عَنْ أُمَّتِي مَا وَسْوَسَتْ بِهِ صُدُورُهَا مَا لَمْ تَعْمَلْ أَوْ تَكَلَّمْ)**[1].

وهوى النفس ووساوس الشيطان يجب صَرْفُها في الإسلام؛ لأن الاسترسال فيها يُصيرها مستساغة في العقل، والغريزة تُحب تجربتها، والعقل الليبرالي لا يؤمن بشيء اسمه وساوس الشيطان وهوى النفس وحديثها، فضلًا عن ضرورة طردها، وضوابط الإثم عليها، وهذه هي النواة لأصل الشر في العقل، وأصل نشوء الأقوال والأفعال فيه، وهي نواة الخلاف بين العقل الصحيح الذي ضبطه الإسلام، وبين العقل المنفلِت الذي تؤسس له الحريات المعاصرة، وكل شر بدأ من هنا.

---

(١) رواه البخاري في «صحيحه» (٤٩٨٦).

وقد يكون الشيء المناقض للفكرة نادرًا أو ضعيفَ التأثيرِ، ولكن لهوى الإنسان وحاجته الخاصة إلى ثمرة تلك الفكرة من بين أكثر الناس أو لأن هناك من يعظم الفكرة المناقضة ويروج لها بقوته النافذة تضمحل الفكرة الصحيحة بحسب قوة الحجم المزيف للفكرة المعارضة، وتقوى عزيمة التابع للفكرة المزيفة من حيث لا يشعر.

وقد بيَّن الله أثر المشاهدات على الثبات والتحول وأثرها في قوة المواجهة وضعفها؛ قال تعالى عن مواجهة النبي ﷺ للمشركين: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ [الأنفال: ٤٣]، أخرج ابن أبي شيبة عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: لقد قُللوا في أعيننا يوم بَدر، حتى قلتُ لرجلٍ إلى جنبي: تراهم سبعين؟ قال: لا، بل مائة، حتى أخذنا رجلًا منهم فسألناه قال: كنا ألفًا[1].

فالصورة التي تكررت في ذهن النبي ﷺ في منامه قوَّت مِن أمره وشدت من أزره، وهي في حقيقتها مخالفة لصورة الواقع عددًا.

وهذا نظير أثر الإعلام على النفس سواءً أكان أثره بحق أو بباطل.

(١) رواه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٧/ ٣٦٠).